لحظات حرجة

في المساحة البيضاء بين الموت والحياة، كانت تنظر إلى السماء، تملأ عينيها الدموع، لا ترى شيئا إلّا عينيه، ولا تسمع شيئًا مما حولها من ضجيج مضطرب إلّا صوته الحاني مغردًا بأغنيته؛ التي كتبها من أجلها يومًا.

كانت ترجوه، وتتوسل لهذا الطيف الحالم أن يبقى معها في لحظاتها الأخيرة، لعلها تجد فيه العزاء، الذي لم تجده في حياتها الجافّة البائسة.

كان يلوّح لها مبتسمًا، كأنّه وجد طريقًا آخر يحمل مسراته؛ ليتركها وحيدة، تعاني ألم الاحتضار.. الاحتضار الذي لم يستح أن يسرق زهرة شبابها، الاحتضار الذي ارتضته، واستسلمت له بشرط واحد.. أن يظلّ وجهه آخر شيء تراه، ويظلّ صوته آخر شيء تسمعه، لتصحبه معه مؤنسًا لوحشتها الجديدة في العالم الآخر.

بخل عليها بذلك، كان أنانيًّا قاسيًّا، لا يملك بين جوانحه قلبًا حيًّا، وعلى الرغم من ذلك أحبّته حبًّا لا يستحقّه، ولو علم مقداره لظلّ قابعًا تحت قدميها، يبكي ألما على فراقها الأخير الأبدي، ولتمنى أن تعود الأيام؛ ليعوضها عن كل لحظة شعرت فيها بالألم والحزن والحرمان،

وهو لا يدري، أو لعلّه يدري، ولكنّ قسوته وغروره منعوه أن يشاطرها العزاء في روحها المحتضرة.

كان من حولها في غاية الحزن، يتحرّكون في كلّ اتجاهٍ ويلتمسون كلّ السبل، ليؤجلوا النهاية المحتومة، لم يكونوا يعلموا أنّها تحتضر منذ عمر مضى، روحها المنفلتة من جسدها البارد كانت تقول لهم: أنْ يدعوها، فلم تعد تريد حياتكم هذه، كنتم جميعًا حرّاس سجنها الكبير، تبحثون عن وسيلة لإبقاء اسمها في سجل الأحياء، وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعًا.

دعوها ودعوني أخرج للحريّة.. للحياة الحقيقية بعيدًا عنكم جميعًا.. بعيدًا عنه.

ما زال الطيف يعذبها غير قانع بما سببه لها من عذاب، وما زال صوت الأغنية يتردد، وهي شاخصة إلى السماء، ترجو الرحمة، وبعد لحظات تحجّرت دمعة في مقلتها، ولم تنحدر قط على وجهها البارد الذي ظللته ابتسامة ملؤها البراءة.

لقد تحررت.